البيـــان
من مهمته البلاغية إلى الوظيفة التأويلية

أ.م.د. صباح عباس عنوز
عميد كلية الفقه / جامعة الكوفة

الخلاصة :

سعى هذا البحث نحو اظهار دور البيان في تحريك دوائر المعنى التأويلي في النص القرآني , وقدرته على فتح فضاءات التأمل , وتتبع أثره في تغيير دلالات المعاني في سياقات الكلام عبر انتاجه الانزياحات وقد رصد البحث المزاوجة بين مهمة البيان البلاغية ووظيفته التأويلية , وكيفية الاعتماد عليه في صنع العدول الذي يأخذ عدة مظاهر يتنقل فيها اللفظ بغير معناه الحقيقي معتمداً اساليب البيان طريقة لتقديم المعنى , فضلاً عن أن اللغة بوصفها نظاماً من الرموز التي تحمل في ذاتها دلالات , اذ يصبح النص نتاجات لسياقات وابنيه لغويه واساليب بيانية معاً , وهنا يظهر البيان محركاً لدوائر المعنى التي ينتهي اليها المطاف من خضم العملية الاسلوبية لأنه المعول عليه في انتاج الصورة التي تومئ الى شكل الدلالة وعلاقاتها . وقد وجد البحث على وفق ما تقدم ان البيان مهيمن في التاويل بوصفه المركز الذي تنتهي اليه كل عمليات العملية الابداعية مصورة عند المنشئ , أو ما يتحقق تالياً عند المتلقي من استقرار يفضي الى القصدية مصورة ايضاً . وقد برهن البحث على ذلك من خلال افاق التاويل التي يتركها البيان في النص القرآني , اذ نلحظ تلك العلاقات من خلال تطبيقه على نصوص قرآنية مباركة , فكان التأويل نتاج حركة دوائر المعنى الايحائيه وهو يصدر عن الاداء الوظيفي لمقومات الشكل والمضمون معاً , حيث يكون البيان نفسه الآلة التي بها تعرف مهمته ووظيفته في ايضاح شبكات المعنى والوصول الى القصد .

المقدمة :

يطمح هذا البحث إلى إظهار دور البيان في تحريك دوائر المعنى التأويلي في النص القرآني ، ولا غرابة في ذلك فالقرآن الكريم جاء متحدياً لامة اتصفت بالبيان ، ووصلت الطاقة التعبيرية عندهم أرقى مراحلها فكان القران الكريم معجزة،وهذا اعتراف ضمني بالرقي البياني عند هذه الأمة ، لانهم لو لم يكونوا كذلك لما تحداهم القران الكريم في لغتهم . والتأويل كان مرافقاً لنزول القران الكريم ,لان الله سبحانه قال(**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب**)١ , فضلاً عن ذلك فان هذه الكلمة (تأويل) وردت تسع مرات في القران الكريم كما سنرى لاحقاً , وهذه من نعم الله سبحانه على العقل العربي ، لان التأويل يساعد العقل على تخطي خطوط المعنى ودوائره ، وهذه العملية بحد ذاتها هي عملية تفعيل لدى العقل الإسلامي . ثم ان دلالة البيان تساعد في ذلك الامر لانها تعني قدرته على حمل المعنى بشكل مقنع الى المتلقي ٢ , ولا غرو في أن التفسير يتخذ مسارين أحدهما ظاهر غير بعيد على العقل الإنساني ، تكون المباشرة ديدنه ، وقد وردت في القران الكريم آيات كثر في هذا الجانب ، أما الاتجاه الآخر فهو ما يسمى بالتفسير الخفي ، والذي يتطلب إعمال الفكر للكشف عن المعني البعيد للنص عبر فك رموز كثيرة من خطوط المعاني ، والذي يهمنا في هذا الجانب هو مشكله البحث دور البيان في المزاوجة بين مهمته البلاغية ووظيفته في

تكثيف عملية التأويل فضلا عن اسهامة في التفسير ليوضح لنا نصوصاً بغير معناها الظاهر ، سواء أكان ذلك بعدم وجود القرينة المانعة وهو ما نطلق عليه التفسير الكنائي ، أو بوجود القرينة المانعة عن إيراد المعنى الحقيقي وما يعبر عنه بالتفسير المجازي ، ولترابط المنهجية لابد من الإجابة عن أسئلة محددة ، منها كيف بدأ التفسير القرآني وبم فسر ؟ تدل أكثر الروايات على إن المسلمين في عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدين لم يحصل لديهم تفسير إلا من نزر قليل يخص اللغة فحسب على النحو الذي شهده القرن الثاني للهجرة ، ومرد ذلك فهم العرب لدلالة الكلمة وسياقاتها الصحيحة ، لان القران الكريم تحداهم كما ذكرنا ، بمعنى أنهم على معرفة تامة بدلالات الكلمات القرآنية ، مع أن ابن عباس(ت ٦٨هـ) قال،(إذا سألتموني عن غريب القران التمسوه في الشعر فان الشعر ديوان العرب) ٣، وهذا يدل على أن التفسير كان محصوراً بمفردات الكلام ولعل هذا القول وجه إلى الأقوام التي دخلت الإسلام تواً بعد الفتوحات الإسلامية ، ثم جاء المفسرون بعد ذلك ليجعلوا لتفاسيرهم مصادر يتكئوا عليها في الوصول إلى مراميهم ، منها المصدر النقلي ، أي ما جاء به المأثور سواء كان هذا المأثور دراية قطعية متواترة ، أو رواية تتقلب بين الظن والقطع) ٤ ، فالرواية بين النفي والإثبات ، وهنا أكد الو احدي ((**لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا النزول ووقفوا على الأسباب وبحثوا عليها**)) ٥ ، بمعنى أن أصحاب هذا الرأي لا يطمئنون إلى التفسير بخلاف ذلك . وهنا يتوخى الحذر تجاه أسباب النزول ، فلا تأخذ على علاتها ، وانما يجب ان تعرض على القرآن نفسه ٦، وقد بحث رهط من علماء ألامة في هذا الجانب ومنهم الزركشي ،٧، والوا حدي ، ٨، ولا شك في أن المصدر النقلي يعتمد على تفسير القرآن بالقرآن ، آو تفسير القرآن بالرواية .

ومن أمثلة تفسير القرآن بالقرآن ، ما أجاب عنه القرآن الكريم وأزاح عن ذهن السامع كثيراً من علامات الاستفهام .

قال تعالي ((**انا انزلناه في ليلة مباركة**))٩، واختلف فيها فجاءت آية القدر لتحدد هذه الليلة (**انا أنزلناه في ليلة القدر**)١٠، وقال تعالى (..**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين**)١١, وقيل ما النور الذي عطف عليه الكتاب , فتبين أن النور هو كلام الله قال تعالى (**كتاب أنزلنا إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بأذن ربهم الى صراط العزيز الحميد**) ١٢, وجاء في المائدة (**أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم**) ١٣,وقد وضحها القرآن الكريم في قوله تعالى (**حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير)** ١٤, وفي قوله تعالى (**مالك يوم الدين**) ١٥,وضحه تعالى في آيه أخرى (ثم ما أدراك ما يوم الدين , يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والآمر يومئذ لله) ١٦ ...

أما الذي جاء في المأثور عن تفسير للرسول (ص) فهو قليل جدا , وقد جمعه السيوطي في صفحات قليلة في كتابه الاتقان١٧, مع اننا نتلمس ميل السيوطي الى التأويل , فقد أورد رأيا حول التأويل قائلا.(والحكمة فيه أن الله تعالى أراد أن يتفكر عباده في الكتاب فلم يأمر نبيه بالتنصيص على المراد في جميع آياته) ١٨,أي أن باب الاجتهاد مفتوح في هذا الشأن,وأورد الزركشي رأيا حصر فيه المصدر النقلي بتفسير القرآن بالرواية عبر المأثور ,آما عن النبي (ص) أو الصحابة أو رؤوس التابعين ١٩، وقد جعل الزركشي الإمام علي عليه السلام في مقدمه هؤلاء ثم ابن عباس ٢٠,وقد أيد السيوطي ذلك ٢١ , وذكر ابن مسعود في حليته أن القرآن أنزل علي سبعه أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن , وأن علي بن أبي طالب (ع) عنده من الظاهر والباطن) ٢٢, وأورد السيوطي قولا عن نصير بن سلمان ألا حمس عن أبية عن علي (ع) انه قال:(**والله ما نزلت آيه إلا وقد علمت فيم أنزلت , إن، ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا سؤولا)** ٢٣ , وقد أيد المحدثون ذلك , وعللوا التصاق هذه الظاهرة بالإمام علي (ع) ومن أهمها , أن الأمام علي (ع) قد أعد إعداد خاصا من النبي (ص) ولأنه عاش بعد الخلفاء , وكثرت حاجه الناس إلى التفسير ٢٤, وهكذا بدأت الحاجة تزداد إلى التفسير عند الناس , أكثر من أولئك في العهد الأول للاسلام الذين لم يأخذ منهم التفسير هذا الاهتمام (لأن القرآن نزل بلغه العرب , وعلى أساليب بلاغتهم , فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه) ٢٥, وبعد هذه

الوقفة على المصدر العقلي نلج فكرة البحث التي تتحد بالتفسير أي ما يستنبطه الباحث حيث يكون للتأويل عبر البيان مكان فيه , وهذا ما نتوخاه من البحث .

التأويل مهيمنة المعنى ونتاج الأساليب البيانية :

بعد أن زادت حاجة الناس إلى التفسير على نحو ما ذكرناه سابقا كان للقرآن الكريم أثر فعال في إيقاد هذه الجذوة التي قدحت معها جذوه النقد البلاغي واللغوي والأدبي, فانشغال الناس بالقرآن الكريم ودراسة نصوصه , اسهم في تعدد المدارس التي تهتم بنزول القرآن الكريم وتراكيبه, ومثل ما اسهم هذا الأمر في زيادة الاهتمام عند دارسي التفسير , أسهم أيضا في تطوير عمليات العمل الإبداعي الأخرى , ثم كان للتأمل العقلي مكان ومرتبة مهمة في التطوير الدراسي والبحثي , فإذا كان المسلمون في بادئ الأمر لا حاجه لهم في التحدي الحضاري, لان مسألة التفوق البياني للقرآن أقر بها العرب وأنتهى الأمر , فان مسألة تحليل مقومات روعة الكتاب وتعليلها قد هيأت إلى ظهور مسألة الأعجاز, وأصبحت في صدارة المسائل التي يحتج بها لصالح النبوة , فظهر التأويل بفائدة كبرى أثرت البلاغة العربية وزادت من سطوع الدرس البلاغي عند العرب وأبانت عن مقدرة العقل العربي في الغوص الى مكونات المعنى وتحريك دوائره والوقوف عند المبتغى الدلالي الذي ينسجم مع توجهاتهم التفسيرية والتحليلية, وكانت(أسباب فكرية وذاتية وعرضية قد دفعت مفكري الإسلام المتأخرين إلى الرجوع نحو النص القرآني) ٢٦, وكانت بيئة المتكلمين ذات دور فعال في نشأة التفكير البلاغي , وقد اخذ الأمر منحيين أحدهما فكري ,والآخر تأويلي , لا سيما المعتزلة إذ يتنافى ظاهر الآيات القرآنية مع أصولهم العقائدية , فهبوا إلى التأويل ، والذي يتأمل تطور التأويل , لا يقف عند أقدم الآراء التي عاد بها البلاغيون إلى ابن سيار النظام (ت ٢٣٢ هـ) الذي نادى بالصرفة، حين قال: (الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الأخبار عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد ، لولا أن الله منعهم بمنع وعجز إحداثهما فيهم) ٢٧, وانما نجد لها بدايات تسبق ابن سيار النظام , وقد كانت واضحة تلك الآراء الكلامية في نهج البلاغة ولا سيما في خطب الأمام على(ع) في ابتداء خلق السماء والارض وخلق آدم ، ٢٨ ومواضع أخرى , ومع ذلك دفعت آراء النظام كل المسلمين على اختلاف مللهم ونحلهم إلى الخوض في مسائل تنصب على النص القرآني لغة وتركيباً ، وقد وافق المعتزلة جمهور من المسلمين ، فأصبحت دراسة الأعجاز تأخذ دورها في التفسير . فبعد أن كان التفسير بالمأثور راح المتمكنون من البيان في الغوض إلى فضاءات التأويل ، وعودة على كلامي السابق إذ ذكرت قبل قليل أننا لا نقف عند ابن سيار النظام . وانما نجد بوادر للتأويل عند المسلمين, ففي عهد ابن عباس حين سئل عن معنى الآية المباركة (**وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون)** ٢٩ , فقد كان عبد الله بن عباس يقول (ليس يعني بقوله : تكلمهم من الكلام , وانما هو من الكلم والجراح , وجمع الكلم . كلوم , ولم يكن يجعله من المنطق , بل يجعله من الخط والرسم , كالكتاب وكالعلامة اللذين يقومان مقام الكلام والمنطق) ٣٠, وقال آخرون على الظاهر ولم يتركوا للبلاغة (للمجاز) شيئا. فهم يرون أن الله سبحانه ذكر الدابة بالمنطق كما ذكروا في الحديث كلام الذئب لأهبان بن أوس , وقول الهدهد مسطور في الكتاب ((**فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين**) ٣١ ,(وكذلك شأن الغراب) ٣٢, وهذا الأمر دعا إلى وقوف الظاهرية في جانب وأهل المجاز في جانب آخر، وقد أنكر الظاهرية التفسير على وفق الصورة الناتجة من السياق , ولم يرحبوا بالتأويل ولم يرجعوا إليه وقد تحججوا بحجج منها أن الله سبحانه لم يخلف الناس على قدر مساو من الرؤية والرؤيا , فأرادوا من النص أن يكون مفهوما للجميع وقد نسي هؤلاء أن الرؤية في الظلمة تختلف من مخلوق إلى آخر,فبعض من خلق الله يرى في غيا هب الظلمات أضعاف ما يراه الآخرون , وكذلك العقل يختلف في قدرة تأمله من إنسان لأخر, وأن بعضاً من الآيات القرآنية لا تدركها أذهان العارفين وفي حقيقة أمرها هي تحتاج إلى تفسير لهم , وعلى المفسر أن يأتي عبر التأويل لإيصال ما يمكن ايصالة غير خارج عن

الإطار العام للآية ، ويتوجب هنا سعة المعرفة والاطلاع (فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول من صفاء الفهم ورتبة المعرفة) ٣٣ ,إذ يعد مهيمنة في بعض من النصوص القرآنية لا يمكن تجاوزه , وهو رحمة للعقل البشري كما أسلفنا لانه يوسع من رحاب المعني ، ويزيد العقل بصيرة حين يفتح له أبواب التفكير المختلفة , ويستعمل الباحث تلك الأبواب لتكون مستويات يدخل عبرها إطار النص مقتحماً أغواره ,. وجريا على المألوف المنهجي , لا بد من وقفه لغوية واصطلاحية على التأويل .التأويل لغة : مأخوذ من مادة (آل) إذا رجع (آل الشيء يؤول مآلا , رجع, وأول الشيء رجعه) ٣٤ , والال بالتشديد في قوله تعالى **(لايرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك المعتدون)** ٣٥, فعبارة (إلاً ولا ذمة)), هو (كل ماله حرمة وحق كالقرابة والرحم والجوار والعهد) ٣٦ والتأويل : (تفسير ما يؤول إليه الشيء وقد أولته بمعنى) ٣٧, ولم يخرج عن هذا المعنى أصحاب اللغة ٣٨, وذكر صاحب القاموس (أول الكلام تأويلا , دبره وقدرة وفسره) ٣٩, فهو يعني الرجوع إلى الأصل أما التأويل اصطلاحا : فلا يختلف عن المعنى اللغوي فهو انتهاء الشيء ومصيره وما يؤول إليه أمره)٤٠, وهو(نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ) ٤١,وهو على علاقة وطيدة بأعمال الفكر والاستنباط)٤٢,وهو (حمل المعنى المجازي أو الاستعمال الكنائي)٤٣,فالتأويل هو (التفسير وأصلة المرجع والمصير)٤٤.

ولكن هذا التفسير يحتاج إلى عناء فكري وتأمل إدراكي , ويبنى التأويل على أمرين هما دلاله اللفظ على المعنى , وما يؤول إليه اللفظ وأصله الذي ينتمي إليه إذ يختص التأويل في الكلام الذي له معنى ظاهر وباطن , وعلى وفق الدليل يكون التأويل بياناً للفظ اعتمادا على دليل عقلي , ويكون التفسير بيانا لمدلول اللفظ اعتمادا على دليل شرعي ٤٥, ويختلفان في نوع الحكم, فالتفسير هو القطع بمراد الله سبحانه، والتأويل هو الترجيح لاحد المحتملات بدون قطع ٤٦, فضلا عن ذلك فالتأويل (يخالف التفسير بالعموم والخصوص , فالتأويل يصدق بالنسبة إلى كل كلام له معنى ظاهر , فيحمل على غير ذلك , فيكون هذا الحمل تأويلا , والتفسير اعم منه لانه بيان مدلول اللفظ مطلقا) ٤٧, وما يلفت النظر أن كلمة التأويل أخذت مرتبة مهمة في القرآن الكريم بدليل أنها جاءت تسع مرات موزعة على سبع سور٤٨, فقد وردت مرتين في كل من سورتي آل عمران والأعراف , وفي السور الأخرى جاءت مرة واحدة وكان مجيؤها على وزن (تأويل) دون مشتقاتها, وهذه الصيغة تدل على الحركة والحيوية , وتقصر أراء الناس مرة ، وتصيب أحياناً على وفق البنية الفكرية التي يتمتعون بها في تأويلهم للأشياء, لذلك نبه الله سبحانه على هذه المسألة في قوله تعالى ((**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات, فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب**) ٤٩.

فمن النص القرآني , (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله), فهذا يعني أن العقل الإنساني يطوع الكلام أحياناً على وفق مراميه ومقاصده التي يبتغي, ومن هذا الجانب يكون الأمر في التأويل معولاً على الدلالات المتكونة من سياقات الكلام ، لان الأمر سوف يتعلق بعلم الدلالة وما يملكه البيان من مستويات تقوي طريقة الأداء للمعني ، فلدخول الكلمة السياق قابلية في (توهج وتحرك دوائر المعنى إذا ما انتظمت) ٥٠ ,وبذلك يكون للبيان دور في حصول الانزياحات, لان أهم شيء في الكلام كما يراه الجرجاني هو (وضوح الدلالة وصواب الإشارة وتصحيح الأقسام وحسن التقسيم والنظام والإبداع في طريقة التشبيه والتمثيل والإجمال ثم التفصيل وطبع الفصل والوصل ووضوحها ونوعية الحذف والتقديم والتأخير والتأكيد وشروطها)٥١, ومن هنا تظهر أهمية البيان في القول, لأنة (إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في الدلاله عليه وبالنقصان ليحترز على ذلك من خلال الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد)٥٢,وتظل الكلمة مساعدة على فتح فضاءات التأويل إذا ترك الغارب لها وحصل العدول , لكنها تعود إلى تحديد مرادها دون تأويل (كلما

انكمش مجال تعدد المعنى)٥٣, وتلاشى إيحاء الانزياحات, في هذا الوصف للسياق تظهر أهمية البيان لأنه يمثل (العلاقة الممتدة بين الأسلوب والمعنى)٥٤, وهكذا يكون التأويل نتاج هذه العلاقة , إلا انه (إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية) ٥٥, ويتم الإخراج عبر الأسلوب البياني المتخذ , ويستوجب ذلك قدرة معرفية تؤهل المؤول إلى الاستباط لأن التأويل يعني (التمكن من ضبط الظواهر الفكرية في النص وأداته الاستباط من خلال محاولة عقلية تأمليه في أداء لغوي للمعاني الكامنة في النص المصرح بها , والملمح لاستنطاق المعاني المتوارية فيه وبجمع المعاني والمفاهيم واعادة تشكيلها يصل التأويل إلى توظيف الظواهر بالاستقراء والتحليل والمقارنة والقياس ومناظرة المفهوم مع المنطوق) ٥٦.

وتأسيساً على ما سبق فان دلالات النص هي نتاجات لسياقات وابنية يتقراها المتأمل من خلال ما تجود به تلك السياقات من معاني , وليس البيان إلا تمام الآلة المقصورة على اللفظ التي تحمل المعنى إلى القلب ٥٧, فالتحول في الأسلوب (يؤدي إلى تحول في المعنى, وان صور المعاني لا تتغير بنقلها من لفظ إلى آخر , ما لم يكن هناك اتساع ومجاز) ٥٨, وحين يظهر أي خطاب في أي نص ما فأنه تعتوره (عمليتان هما المعنى والتأويل وتحمل ذلك التأويل صور بيانية , فيما تكون اللغة مادة للمعنى بوصفها نظاما من الرموز التي تحمل في ذاتها دلالات كامته) ٥٩,ويأخذ البيان دوره في عملية التأويل من خلال الانزياحات التي يتركها في النص مخلفا العدول الذي يأخذ (عدة مظاهر يستعمل فيها اللفظ بغير معناه الحقيقي كالاستعارة والمجاز المرسل والكناية .الخ) ٦٠,وتمثل البلاغة دائما (العلاقة بين الأسلوب والمعنى)٦١, والأسلوب أكثر ارتباطا بها من فن الشعر)٦٢, والبيان جزء مهم من البلاغة يعول عليه في رسم الصور الفنية و (مكانه من فقه اللغة كمكان علم المعاني من النحو) ٦٣.

ومن هنا يظهر دوره في الانزياحات أي العدول , فالتأويل ما هو إلا نهاية لدوائر المعنى التي ينتهي إليها المطاف من خضم العملية الاسلوبية وما يتعلق بها من مقومات الاسلوب . ويلتصق بالبلاغة اكثر من أي علم آخر, لأن المضمون الذي يتوخاه والمقومات التي يتأسس عليها لا سيما في انتاج الصورة والقصور تتوافر في علوم البلاغة أكثر من أي علم أخر , فهو ربيبها ونتاجها وتتضح تلك العلاقة جلية في البيان بوصفة جزءاً من البلاغة يعول على تأسيس الصورة التي تسهم في أداء المعاني , فضلاً عن أن يكون مولداً في كثير من الأحيان لتلك الدوائر المعنوية , لانه يتشكل بصورة فنية على وفق الشكل والأسلوب , أي انه نتاج النظم الذي يفضي إلى الصورة , وتتحدد مسألة إعجاز القرآن عليه أي النظم ، فضلاً عن أن البلاغة في أعلى مراتبها تتضح فيه, فأعلى رتبة في حسن البيان ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد ٦٤, فالنظم له دور في إخراج التأويل مثلما للبيان الدور نفسه ، لان بالنظم تحدث الصورة التي يتأسس عليها الكلام , والذي ينشئ , لا يبغي أكثر من أن ينضد (أشياء بعضها إلى بعض, ولا يريد في نضده ذلك أن تجيء له هيئة أو صورة فحسب, بل أن تكون له مجموعة رؤى مرئية رأي العين والفكر معاً . وهنا تظهر أهمية التأويل في تحريك وتقليب تلك الرؤى . ولابد أن يتغير المعنى إذا تغير النظم)٦٥, وخلاصة لما مضى يمكننا القول أن التأويل يصبح مهيمنة لا مناص منها في أي نص,لأنة يبتغي المعنى في النص , والنص يؤسسه أسلوب قائم أساسه على المتحول, وان ثمة علاقة بين صور المعاني وذلك التحول , وان عملية الإبداع الفني هي تخطي وانطلاق وصهر معا للخصائص الأسلوبية عبر فعل إبداعي, لا يتغاضى عن البيان في حمل ذلك المنصهر اللغوي الجديد إلى المتلقي , حيث يبقى الأخير رهين تأويلاته على وفق ما تحققه الصور في ذهنه, وما تسعفه ثقافته الخاصة . ولنقف على علاقة التأويل بالبيان عبر التطبيق الإجرائي .

البيان وآفاق التأويل في النص القرآني ... تطبيق إجرائي

لنتأمل العلاقة التي أومانا إليها في بداية البحث بين البيان بوصفة حاملا للمعنى والتأويل الذي هو نتاج حركة دوائر المعنى الإيحائية, وهو يصدر عن الأداء الوظيفي لمقومات الشكل والمضمون بما فيها البيان , وهذه العناصر التي يقوم عليه النص كثيرا ما يطوعها المؤول على الرغم من اتساقها في نسق سياقي معين, قاصدا الوصول الى المعنى المنشود . لقد وردت نصوص قرآنية كثيرة لا يمكن حملها على الظاهر , لان في ذلك ما يدعو إلى الاستفهام والوقوع في ملتبسات لا يقبلها العقل الإسلامي, فمثلا في قولة تعالى ((**طلعها كأنة رؤوس الشياطين**)) ٦٦, من المعروف في البلاغة العربية ان المشبه به يكون دائما معروفا لدى المخاطب , وعند ذلك ينطلق فكر المتلقي مع دلالة ما يسمع , ولكنه هنا لم ير الشيطان فجيء به مشبهاً به وحصلت المقارنة, لان التشبيه هو (الدلالة على مشاركة أمر لأخر في المعنى) ٦٧, لقد سمى البلاغيون هذا التشبيه بالتشبيه الوهمي , وهو ما لم يدرك بشيء من الحواس) ٦٨, وقد شبه طلع شجرة تخرج في أصل الجحيم برؤوس الشياطين وقد استقر في نفوس الناس قبح الشيطان فحصلت لديهم معرفة عبر الوعي الجمعي , فأصبح الشيطان بمنزلة المشاهد وربطوا ذلك بقول امرئ القيس (٦٩) .

أيقتلني والمشرفي مضاجعي
ومسنونة زرق كأنياب أغوال

لقد قادنا الأسلوب البياني (التشبيه الوهمي) إلى تأويل المعنى ، لان الناس لم تشاهد الشيطان ، وانما أولت ذلك بناء على ما أسعفتهم به ذاكرتهم وما تعارفوه عن قبح الشيطان ، فالتشبيه الوهمي هو الذي حمل هذا الأفق التأويلي ,ورأى أهل الظاهر أن هناك شجرة وكل ما ورد حقيقة ٧٠, بينما قال أبو عبيده علامة البصرة وهو مؤول . (إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم وأراد سبحانه التشبيه ألم نسمع قول الشاعر أمرىء القيس) ٧١, (الذي مر ذكره), وقد أيد ضياء الدين بن الأثير هذا الرأي , إذ استقر في نفوس الناس من قبح الشياطين ما صار بمنزلة المشاهد ٧٢,أي انه اصبح يدرك بالوجدان مثل اللذة والشبع والجوع والألم . فشبة الجليل سبحانه طلعها أي حملها برؤوس الشياطين في القبح, فشبهه بمنجل أو بحيات لها أعراف أو رؤوس قباح تسمى شياطين ٧٣, ففتح الأسلوب البياني فضاء التأويل إلى أقصى طاقاته غير مبتعد عن فحوى الأيه الكريمة , لانه على رأي المفيد (٤١٣هـ)(من تأول القرآن بما يخرجه عن حقيقته وادعى المجاز منه والاستعارة بغير حجة قاطعة فقد أبطل بذلك , وأقدم على المحظور , وأرتكب الضلال) ٧٤, وفي النص القرآني الآتي : (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) ٧٥,لا بد من حمل الايه القرآنية هنا على المجاز لان خلاف ذلك يعد قدحاً بعدالة الله سبحانه في ما إذا أخذت الايه على ظاهرها , ويرى د. الصغير أن عبد القاهر الجرجاني (قد دله النظر العقلي إلى مواطن الضرورة في القول بوقوع المجاز في القرآن) ٧٦ , فقد أريد بالأعمى (الضال عن السبيل ، وهو أضل له في الآخرة) ٧٧, فقد كتب له الضلال في الدنيا نتيجة تصرفه وسلوكه ، فهو كالأعمى الذي لا يبصر ما حوله وإبصار الدين بين واضح ولكنه تعامى عنه ، وإذا كانت هذه حالُه في الدنيا فهو في الآخرة أضل سبيلا, لقد كان المجاز مرسلاً بعلاقة سببية, فقد أطلق السبب (من كان في هذه أعمى) أي في الدنيا وأراد به نتيجة عمله ومسببة (فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا), والمراد انه لم ير نوراً في الآخرة ينقذه مما اقترفت نفسه في الدنيا ، وقد حقق المجاز المرسل لنا بهذه العلاقة أفاقا رحبة من التأويل فأدى المجاز وظيفته، وكان تأويل الآية شرطاً في وضوح الدلالة ، لان أخذها على الظاهر لا يصح كما ذكرناه سابقاً . فالمجاز عدل باللفظ هنا إلى دلالة جديدة , (وإذا عدل باللفظ عما يوجبه اصل اللغة وصف بأنه مجاز, على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي , وجاز هو مكانه الذي وضع أولاً)٧٨, ويرى عبد القاهر الجر جاني أن المجاز يجنبنا من الوقوع في الاثم٧٩, فقد تلصق صفة من صفات التجسيد لله سبحانه وهذا لا يمكن .

قال تعالى : ((**إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم**) ٨٠, لقد أدت الاستعارة في

(يشترون بعهد الله ثمناً) دوراً مميزاً في إيضاح الدلالة , بقرينة أن العهد ليس ممن يباع ويشترى , والمستعار له (المشبه) هو الاستبدال بشيء فحل محل(الإيمان بالرسول والوفاء بالأمانات)، ثم رشحت وقويت هذه الاستعارة بما يلائم المستعار له وهو الثمن ، فالاستعارة هنا مرشحة لأنها عضدت المعنى وقوته, واقترن اللفظ المستعار الشراء بما يلائم المشبه به المستعار منه, وهو نتيجة البيع(الثمن), فهؤلاء لا نصيب لهم, ثم يأتي المجاز العقلي في (**لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم**),لأنه في المجاز يتم وصف الجملة كلها عن طريق المقبول دون اللغة,فقصد هنا أن الله سبحانه لا يصيبهم برحمته يوم القيامة ولا يثنى عليهم على فعلهم, وقيل هذه الآية (نزلت في أحبار كتموا أمر محمد(ص) وحرفوا التوراة للرشوة , أو في رجل حلف كاذباً في إنفاق سلعة) ٨١, وهنا لا بد من قيام التأويل فالمجاز حصل في إسناد الكلام إلى الله سبحانه بعلاقة سببيه,أي ما بني للفاعل وأسند إلى السبب فإسناد عدم الكلام إلى الله سبحانه كان سببا لعدم رضاه جل في علاه عن هؤلاء القوم . أما (**لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم**),فالمعنى في عموم النص كناية عن غضبة سبحانه وتعالى على القوم المشركين(فعبر بعدم الكلام عن الغضب والانتقام والمجازاة) ٨٢ . ومثل ذلك في قوله تعالى : ((**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد علية الله فسيؤتيه أجرا عظيماً**)) ٨٣ .

يرى البلاغيون أن حسن الاستعارة التخيلية بحسب حسن الاستعارة بالكناية متى كانت تابعه لها ٨٤, قصد بالآية الكريمة إن (الذين يبايعونك بالحديبية (إنما يبايعون الله) لان طاعتك طاعته(**يد الله فوق أيديهم**) ٨٥,هنا استعاره مكنية , وقد قاد البيان التعبير إلى التأويل عبر الوظيفة التأويليه فلا يمكن حمل الجمل على الظاهر مطلقاً, لأن الأمر يدخل في التجسيم وهذه الحال تطلق على الجسم الذي يشغل حيزاً, لكن الله تعالى خالق الأماكن والازمنه ومنشئ كل ما تصح عليه الحركة والنقل والتمكن والسكون والانفصال والاتصال والمماسه والمحاذاة ٨٦, فالأمر يحسمه العقل تأويلاً بعدم أخذ التعبير القرآني ظاهراً ، لان الله سبحانه(لا يناله غوص الفطن ، الذي ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود ولا أجل ممدود , فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ... ومن حده فقد عده) ٨٧, فقصد بذلك قدرة الله تعالى فوق كل قدرة ، فهو البصير السميع وقد حققت الاستعارة دلالة التأويل المستخلصة من اقتران الألفاظ بالمعاني, وأسهمت في رسم صورة تأويليه تأملها العقل فنظر فيها, فكان البيان محركاً لدوائر المعنى ومسهما في فتح فضاءات التأويل عند المتأمل . قال تعالى ((**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً**) ٨٨.

لقد جاء المجاز في هذه الايه الكريمه(٨٩) وعمل انزياحاً في دلالة اللفظ المذكور على مدلول جديد (**يأكلون في بطونهم ناراً**) , فقد تنازل الفعل (يأكل) عن معناه اللغوي الحقيقي المعروف وهو المضغ بالفم إلى مدلول جديد ، فالعلاقة هنا سببيه لان الأكل بُني للفاعل لكنه أسند للسبب, فالبطون لا تأكل وانما الفم هو الذي يأكل وذكر البطون لأنها سبب إلى الأكل الحرام ، وكانت النار استعارة فأنما إذا أكلوا ما يوجب العقاب بالنار كان ذلك المأكول مشبهاً بالأكل من النار٩٠, وقد غاب فيها الأكل الحلال وظهرت مفردة (النار) لتعطي وصفاً كاملاً للعبارة , وهنا تعاون المجاز العقلي والاستعارة المكنية في إنتاج التأويل المطلوب , ويظهر البيان قوة فاعلة في حمل النص على التأويل حين يتعارض النص الظاهر مع العقل في حمله على ما هو عليه , تأمل قوله تعالى ((**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين**)) ٩١ .

رسم التشبيه التمثيلي هذه الصورة, وكان وجه الشبه فيه مركباً عقلياً أي انه منتزع من أمور عقليه , أو بعضها حسي وبعضها عقلي , فوجه الشبه هنا بين الذين كلفوا بالعمل بما ورد في التوراة ولم يعملوا , وبين الحمار الذي يحمل أسفاراً دون قدرة على الانتفاع منها , أي حرمانه من الانتفاع على

الرغم من تعبه والكد في استصحابه ٩٢,فلا يمكن أخذه هنا على الظاهر ، فإذا هم حملوا كيف لم يحملوها, إذن لابد من مراجعة الوظيفة التأويلية التي أداها التشبيه ، وهو أن الذين يحملون أوعية العلوم ومستودع ثمر العقول ثم لا يحسون بما فيها ولا يشعرون بمضمونها ٩٣, فهؤلاء لا يعون الحقيقة, كمن يجمع الكتب دون أن تزورها عيناه ، أي انهم اليهود الذين كلفوا بالعمل بالتوراة, ثم لم يعملوا بها كمثل الحمار الذي يحمل كتباً لا ينال منها ألا التعب ٩٤, قال تعالى ((**يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حللاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين**)) ٩٥, (تعد الكناية أكثر الأساليب البيانية التي تتيح للمتكلم قول كل شيء) ٩٦, وهي تهتم بإيراد غير ظاهر المعنى أو دلاله اللفظ الأصلية , ولعلها في ذلك أكثر التصاقاً بالتأويل من أساليب البيان الأخرى , لان مهمتها أصلا تتركز حول إثبات معنى من المعاني (فلا يذكر باللفظ الموضوع له في اللغة . لكن يجيء إلى معنى هو تالية وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله سبيلاً عليه) ٩٧, فالكناية أخذت بيد الدلالة إلى التأويل , أي (لا تنجذبوا للشيطان في قيادة , لان المنجذب في قيادة غيره تابع لخطواته)٩٨, وهذه كناية للتحذير من طاعة ما يسوس به الشيطان , فلا يعقل أن هناك شيطاناً مرئياً ويتقفى أثاره إنسان, وأنما لا بد من التأويل باعتبار الكناية عن موصوف, وهو الشيطان الذي تتمثل به كل طرق المخادعة والغدر وتقصي مرامي الخير التي يبحث عنها الإنسان المؤمن . وهذا ما دلنا عليه البيان باتساقه مع مكونات الأسلوب ,لأن التأويل (تفسير باطن اللفظ بصرف معناه الظاهر إلى معنى من المعاني الخفية المحتملة التي ينطوي عليها , أو كشف ما انغلق من المعنى) ٩٩ .

قال تعالى ((**ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الادعاءً ونداءً صم بكم عمي فهم لا يعقلون**) ١٠٠, ينعق بمعنى يصيح أي (مثل داعي الذين كفروا كمثل الناعق بالبهائم التي لا تسمع الا تصويته ولا تفهم معناها ((صم بكم عمي)) عن الهدى (فهم لا يعقلون) لتركهم ١٠١ , فمثله أي الكافر ((كمثل الذي ينعق مع البهائم بما لا يسمع من نعيقه الادعاء ونداء ، فينزجر بمجرد قرع الصوت سمعه من غير أن يعقل شيئاً, فهم(صم) لا يسمعون كلاماً يفيدهم ، و(بكم) لا يتكلمون بما يفيد المعنى ، و(عمي) لا يبصرون شيئاً, فهم لا يعقلون شيئاً لان الطرق المؤدية إلى التعقل مسدودة عليهم)) ١٠٢, لقد أدى البيان دوره الرائد في إيضاح دلالة النص عبر الاستعارة المكنية ، فقد استعار النعيق للكافر وهو المستعار له ((المشبه)), وغاب المستعار منه وهو المشبه به ((البهائم)), وتظهر قيمة الاستعارة في أنها نقلت الفكر إلى التأمل بوظيفة تأويليه أدتها على أكمل وجه ، لان الاستعارة (تعطي الكثير من المعاني بأقل الألفاظ فهي تجعل الاسم الموضوع له في اصل اللغة بدليل الحال وأفصح المقال بعد السؤل أو بفحوى الكلام) ١٠٣, إن الذي يتتبع الآي الكريم يجد كثيراً منه قد حفل بالتأويل ..., قال تعالى ((**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة**)) ١٠٤, لقد حققت الاستعارة المكنية هنا دالة الوصول إلى التأويل ، فالنفس ليس مما يباع ويشترى إذا لابد من توطن معنى داخل إطار اللفظ المرصوف, ((وذلك أنه سبحانه لما أمرهم ببذل نفوسهم وأموالهم في الجهاد عن دينهم والمنافحة عن رسوله عليه السلام وضمن لهم على ذلك الخلود في النعيم والامان من الجحيم ،كانت نفوسهم واموالهم بمنزلة العروض المبيعه, وكانت الاعواض المضمونة عنها بمنزلة الآثمان المنقودة ، وكانت الصفقة رابحة لزيادة الأثمان على السلع واضعاف الاعواض على القيم)) ١٠٥ وبذلك حققت الاستعارة دورها في التأويل ، لان وظيفتها تقريب الشبه ومناسبة المستعار للمستعار منه ...

وخلاصة هذا البحث , يمكن القول بأن ثمة علاقة بين المنتخب من البيان لحمل دلالات المضمون , وبين التأويل , لقدرة البيان على فتح فضاءات التأويل أكثر من الأساليب البلاغية الأخرى , بوصفه الشكل المعبأ بدلالات النص , ولهذا الشكل صورته المتكونة من إيحاء الدلالات ونوع الأسلوب المتبع , وبعد ذلك فان هذا الشكل بما يقدمه إلى المتلقي من قدحه فكرية وصورة تأملية فهو الأداء البياني المنتخب, واينما جاء البيان حاملاً للمضمون كان مهيمنة في النص, والأدلة على ذلك كثيره , فإذا ما

تتبعنا النصوص القرآنية الحافلة بأساليب البيان نلمس هذه الظاهرة, التي تأخذ بالمتلقي حتماً إلى التأويل ,وسنشاهد ذلك في الأوراق القادمة...

الأداء البياني مهيمن في التأويل

نقصد بالهيمنة هنا ما يتركه الأسلوب البياني من سطوة على النص , فيكون بمثابة المركز الذي تنتهي اليه كل عمليات العملية الإبداعية عند المنشئ , أو ما يتحقق تاليا عند المتلقي من استقراء يفضي إلى القصدية.

ففي قوله تعالى ((**أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون**)) ١٠٦لقد حصل تشخيص هنا عبر الاستعارة المكنية حين حلت الأحلام محل الآمر, بمعنى تأمرهم عقولهم بهذا القول المنافي, لأن الكاهن ذو فطنة , والمجنون مغطى عقله , والشاعر ذو كلام موزون مخيل وتنافي هذه المفاهيم ظاهر , وفي هذا الكلام توبيخ وتهكم على أولئك الذين الصقوا هذه الصفات للرسول (ص) بل (هم قوم طاغون) بعنادهم ١٠٧, وقد هيأ التشخيص هذه الدلالة فقام بوظيفة تأويليه , سيستكشفها المتأمل من خلال النظر العميق في إيحاء المعنى، إن إعمال العقل هنا لاستنباط القصدية من هذا النص القرآني الكريم تأثر بالبيان عبر(التشخيص) الذي لون سمات هذه القصديه, في إسناد الآمر إلى الاحلام , فاتضح المعنى من الوهلة الأولى بانقياد هؤلاء المعنيين الى احلامهم , فهيمن التشخيص وظلت دلالات المعنى منقادة له . وحين يأتي الانسان المتأمل لابد من اخضاع عقله للتخييل ليستطع التأويل , لانه لا يمكن تفسير النص ظاهرياً , وحين نمحو هذه الظاهرة عن العقل فإننا نجانب الحقيقه,(وحين يمحو أهل السنة التخييل محواً لا يقفون موقفاً خيراً من خصومهم . لانهم يكفون عقولهم عن التفكير في كيفية التعبير , فأسلوبهم يقوم على الاقتناع بالظاهر الذي لا سبيل إلى أن يعرف كنهه , أما المعتزلة فيضطرون إلى التأويل والمكابدة) ١٠٨, ففن القول الجيد هو ما توافرت فيه عناصر التخييل ١٠٩, وثمة علاقة بين التخييل والبلاغة , والتخييل يساعد على فتح فضاءات التأمل , ومن ثم الدخول الى التأويل بناءً على ما يجود به خزينه الفكري والثقافي ، لان فاعلية الخيال في التصوير قائمه على مبدأين هما الحسيه والعقلانية ١١٠, وقد أومأ عبد القاهر الجرجاني إلى ذلك حين رأى المعاني تنقسم على قسمين عقلي وتخيلي ١١١, وبذلك يكون البيان العنصر الفاعل المهيمن وله السطوة في عمليه تكوين المعنى وحمله عند المنشئ وعملية إيصاله إلى المتلقي , لنتأمل نصاً قرآنيا آخر كان البيان مهيمناً فيه ومساعداً على التأويل قوله سبحانه وتعالى حاكياً عن قوم شعيب عليه السلام , ((**قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء انك لانت الحليم الرشيد**)) ١١٢, إذ أدى التشخيص بالاستعارة المكنية مهمته التأويلية هنا, (أي دينك وما جئت به من شريعتك فيها الصلوات وغيرها من العبادات , تحملك على أمرنا بترك ما يعبد آباؤنا) ١١٣,لقد ظهرت هيمنة البيان منذ البدء , حين جاء التشخيص بأسلوب الاستفهام , وقد حصل المزج البلاغي بين البيان والمعنى , بوصف الاستفهام أسلوباً من أساليب الإنشاء الطلبي في علم المعاني , وقد أشعرنا التشخيص بأسلوب الرفض منذ اللحظة الأولى لانطلاق الكلام , فالرفض بقدر ما ينتصر للموقف يسهم في انعاش الفنية داخل النص ، فالرفض صدر هنا من أناس ضد شعيب عليه السلام , والرفض في حقيقته اما ميتاقيزيقي, أو اجتماعي , أو سياسي ١١٤, فكان رفضهم اجتماعيا لأن شعيبا جاء بما ينافي ديانتهم , فكان البيان المهيمن هنا تجلت هيمنتة المعنويه بالرفض من قوم شعيب (ع), وهذا الرفض الاجتماعي يتراوح بين الحرمان والقمع , ولعل المفهوم الاخير هو الذي تخصص بالنص القرآني , فارادوا قمع ما جاء به شعيب . لان هذا النوع من الرفض يأتي (عبر أشكال تعبيريه تتراوح بين اسلوب السرد وهو القالب , وبين الاسلوب الانشائي القائم على الاستفهام الاستنكاري والتعجب لتأسيس خطابية منفصله) ١١٥, وهذا ما تلمسناه في النص القرآني الكريم . وهكذا تظهر هيمنة البيان في إنتاج دلالات المعنى ودوائر الإيحاء التي تسهم في أدراك التأويل ، وبذلك يكون البيان قد أدى وظيفته التأويليه وعلى هذا النحو نتأمل قوله تعالى(**ومن الليل فسبحة وأدبار النجوم**) ١١٦, فهنا

استعاره خلفت لنا معنى تأويلياً ، فالنجوم لا تدبر لان الأدبار للحيوان(فكأن الله سبحانه وصفها بالادبار بعد الإقبال والمراد بذلك الأفول بعد الطلوع والهبوط بعد الصعود) ١١٧, وقد جاء في الخبر الشريف (أن القرآن يجري مجرى الشمس والقمر) ١١٨، أي أن القرآن الكريم المثل الذي يحتذى به في كل زمان ومكان , وان نصوصه المباركة صالحة للنشر به دوماً , وهذا يعني أن العقل يبقى دائما في تفاعل مع النصوص واستبيان مراميها , لان الله سبحانه وهب الإنسان عقلاً وميزه من سائر المخلوقات ، وفتح له فضاءات المعرفة عبر خصيصة التأمل التي إذا ما أحسنها العقل البشري فانه تسلق مراتب الرقي المعرفي ، ولا نريد الخروج عن موضوعنا لكن ثمة علاقة بين هذا التأمل وبين إيحاءات البيان التي تدلي على التأويل ، ونؤكد أن ذلك هبة ربانية للعقل البشري ، إذ يمنح التأويل العقل حركية في التأمل والتدبر، ويفتح له أفقاً معرفياً وعمقاً عقلياً ...

من خلال قدرته في اعمال العقل والاستنباط المبني على علمية ودراية ثقافية ، وموهبة تأمليه استنتاجيه ، لنتأمل قوله تعالى (**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**) ١١٩, فقد حركت الكناية هنا دوائر المعنى لتفضي بالنهاية إلى أن القصدية تكمن في نهي الإله سبحانه عن البخل والإسراف غير المحسوب ، وكلاهما صفتان معنويتان ، ولكن التأمل العميق في سياق النص الذي كونته ألفاظ لم تحاسب في نتاج دلالاتها على الظاهر، وانما على ما اختبأ وراء اللفظ من ذلك المستور، فأسهم في فتح فضاء التأويل، وكانت الكناية رائدة لذلك ،فأصبح مفهوم الإسراف والتبذير نتيجة معنوية لهيمنة الأداء البياني للكناية, منذ اللحظة الأولى التي سيرت سياق الكلام بالنهي (ولا تجعل) وبعطف النهي(ولا تبسطها) فتراوحت مهمة الكناية بوصفها اداءً بيانياً بين مهمتها في احتضان المضمون , وبين وظيفتها في فتح المنفذ العقلي امام التأويل , وبذلك أصبحت مهيمنة على طرفين مهمين من اطراف العملية الابداعيه , وهما إنتاج الدلالة عند المنشئ (الباث) للفكره , وتلقيها عند المتلقي (المستلم). وهذه الحال نجدها في كل أداء بياني ينتخب لايصال المعنى , فلا بد من هيمنة له منذ بدء الفكرة عند المنشئ حتى استقرارها عند المتلقي . لنتأمل هذه الرؤيه في قوله تعالى, ((**أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون**)) ١٢٠, عمل المجاز المرسل بعلاقته الملزوميه حجيته في الاستفهام عن نقل فكرة (نزول البرهان) على هؤلاء المعنيين , أي هل أنزلنا برهاناً يستدلون به وهو يدلهم أو حجة تكلم دلاله على إشراكهم)) ١٢١ , فسمى الدلاله كلاماً لأنها من لوازم الكلام فكان المجاز المرسل بعلاقته الملزوميه مهيمنة , سخرت المعنى بالاسلوب الاستفهامي , ليكون ذلك غرابة على ما يدعونه أو يظهرونه , فهذا الاستفهام الإنكاري تحقق بهيمنة المجاز المرسل , وعبره حقق المجاز المرسل وظيفته التأويلية التي ساعدت على استقرار ما انتهى اليه المعنى عند المتلقي , وبذلك وضحت مهمة الأداء البياني منذ حمله المعنى إلى إسهامه في تحقيق وظيفته التأويلية .

وبعد هذا العرض نخرج إلى القول بأن البيان يعد وسيله مهمة في تحريك دوائر المعنى, ومن ثم فانه رافد مهم من روافد التأويل ، وأحيانا يكون المهيمن الأول والأخير على النص للوصول إلى التأويل والامساك بالمعنى اذا ما بنيت الدلالة المبتغاة على الصورة ودلالاتها وأيحاءاتها ، وقد يكون شاهداً قاطعاً على تفسير النص بالمسار الذي أول ، كما تلمسنا ذلك في النصوص القرآنية التي درست دراسة على وفق التطبيق البياني الإجرائي الذي سلف, ويمكن القول أيضا أن الأداء البياني حين يحمل المعنى بعد ان يختاره المنشئ لنقل تلك المهمة , تكون له السطوة الواضحة والاسهام الفاعل في فتح فضاءات التأمل , وبذلك يمتد دوره من المنشئ عبر سياقات الكلام إلى المتلقي عبر عملية الإدراك . فتتضح هيمنته الفاعله في حمل قصدية القول من فكر المنشئ وإيصالها إلى ذهن المتلقي, حيث تكون عملية الايصال متنوعه من متلق إلى آخر على وفق ثقافته ,وبهذا حقق الأداء البياني مهمته البلاغيه الفنية , وأسهم في التأويل, فكان في كل الأحوال مهيمنة تتمتع بالسطوة في إنضاج الفكرة ، والله ولي القصد والحمد له سبحانه أولاً واخراً .

الهوامش

١. ال عمران ,٧
٢. دلالة البيان في تفسير القرآني . د. صباح عباس عنوز مجلة كلية الدراسات الاسلامية السنة الأولى . العدد الثاني ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م
٣. ظ الاتقان في علوم القرآن , ٩/١/ جلال الدين السيوطي , ١٩٥١ م . و ظ المجلس , ثعلب , ٣١٧ , و ظ معاني القرآن , الغراء ١/ ٢٨٩/٢٩٠
٤. ظ/ المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق د. محمد حسين علي الصغير , ٦١
٥. الاتقان ٨٩/١
٦. ظ: المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم ,٥٣
٧. ظ/ البرهان في علوم القرآن ٢٣/٢٢/١/بدر الدين الزركشي أبو الفضل ابراهيم , القاهرة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م.
٨. ظ/ الواحدي , أسباب النزول
٩. الدخان /٣
١٠. القدر/١
١١. المائدة /١٥
١٢. ابراهيم /١
١٣. المائدة /١
١٤. المائدة/٣
١٥. الفاتحة/١
١٦. الانفطار/١
١٧. الاتقان في علوم القرآن ,١٧١/٤
١٨. م.ن/ ١٧١/٤
١٩. ظ, البرهان في علوم القرآن ١٧٣/٢ , و ظ المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم,
٢٠. البرهان في علوم القرآن , ١٧٣/٢
٢١. ظ الاتقان في علوم القرآن , ٢٠٤/٤
٢٢. ظ.م.ن.٢٠/٤
٢٣. م.ن.٢٠٤/٤
٢٤. مناهل العرفان , ٤٨٢/١-٤٨٣
٢٥. المقدمة / أبن خلدون , ٣٣٦
٢٦. التفكير البلاغي عند العرب , حماد صمود , ٣٦
٢٧. مقالات الاسلاميين , ابو الحسن الاشعري مطبعة السعادة مصر ١٣٢٣, ٢٥٥ التفكير البلاغي عند العرب , ٣٧
٢٨. نهج البلاغة , تحقيق محمد عبده , ج١ ١٤
٢٩. النمل /٨٢
٣٠. الحيوان , الجاحظ ٥٠/٧
٣١. النمل / ٢٢
٣٢. الحيوان , الجاحظ ٥٠/٧
٣٣. عوارف العوارف / السهر وردي ٢٦/٢٥
٣٤. العين ٣٦٩/٨ , ظ لسان العرب / ١٣/ - ٣٤/ ماد (ال)
٣٥. التوبة / ١٠
٣٦. تاج , الزبيدي , ٣١٣
٣٧. تاج اللغة وصحاح العربية الجوهري ع/ ١٦٢٧
٣٨. ظ: المفردات في غريب القرآن , والقاموس المحيط , ٣٣١/٣
٣٩. ظ : القاموس , مادة (أول)
٤٠. مجمع البيان الطبرسي , ٢٩/١
٤١. لسان العرب , ٣٤/١٣
٤٢. ظ, البرهان في علوم القرآن ١٥٠/٢, وظ : الاتقان , ١٦٨/٤, وظ المبادئ العامة لتفسير القرآن , ٢٢
٤٣. المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق , ٢١
٤٤. مجمع البيان الطبرسي, ١٣

٤٥. ظ : تفسير سورة الحمد , محمد باقر الحكيم ٢٢٧
٤٦. ظ: م.ن.٢٢٧
٤٧. م.ن٢٢٧
٤٨. ظ آل عمران / ٧ , النساء / ٥٩, الاعراف /٥٣, يونس /٣٩, يوسف ٦, الاسراء /٣٥, الكهف /٧٨
٤٩. آل عمران/٧
٥٠. أثر البواعث في تكوين الدلالة البيانية , ٧٩
٥١. دلائل الاعجاز , ٢٨٧-٢٢٨
٥٢. السكاكي , مفتاح العلوم , ١٥٧
٥٣. نظرية البنائية في النقد الأدبي , د. صلاح فضل , ٢٩٧
٥٤. الأصول دراسة ابستمولوجية, د. تمام حسان , ٣١٨
٥٥. فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال , ابن رشد ٣٢
٥٦. التأويل والتفسير النص (مقارنه في الاشكالية) د. عبد الامير زاهد , مجلة السدير , ٤ص٣
٥٧. ظ : كتاب الصناعيين , ٧
٥٨. أثر البواعث في تكوين الدلاله البيانية , ١٠٨
٥٩. م.ن ١٠٨
٦٠. الأصول , ٣٦٣
٦١. م.ن ٣١٦
٦٢. ظ كراهام هاف , الأسلوب والأسلوبية , ١٩
٦٣. الأصول . ٣٦٣
٦٤. ظ بيان اعجاز القرآن – ثلاث رسائل في اعجاز القرآن , الخطابي ص٢٦
٦٥. ظ الجرجاني في بلاغته ونقده , احمد مطلوب , ٨٧/٤٩
٦٦. الصافات /٦٥
٦٧. الايضاح في علوم البلاغة , الخطيب القزويني , ٢١٣
٦٨. ظ .م.ن.٢٢٠
٦٩. ظ : ديوان امرئ القيس , و ظ معجم الادباء ج ج٧و١٦٧/١٦٦ / للاستزادة بالشرح أنظر الايضاح , ٢٢٠
٧٠. ظ : الفكر البلاغي عند العرب , ٩
٧١. ذكرى أبى العلاء , طه حسين , ط / القاهرة , ١٩١٥, ١١٧- ١١٨
٧٢. المثل السائر ج/١٦٥
٧٣. ظ : تفسير القرآن الكريم , السيد عبد الله شبر , ٤٤٨
٧٤. الافصاح في امامة أمير المؤمنين , محمد بن النعمان , المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف ١٣٨٩هـ٨٩
٧٥. الاسراء / ٧٢
٧٦. مجاز الكرآن / ٦٢
٧٧. مجاز القرآن , خصائصه الفنية وبلاغته العربية , ٦٣
٧٨. أسراء البلاغة , ٣٦٥
٧٩. ظ : م.ن, ٣٦٢
٨٠. آل عمران / ٧٧
٨١. تفسير القرآن الكريم السيد عبد الله شبر ح٥٩/٣
٨٢. مجاز القرآن خصائص الفنية وبلاغتة العربية , ٧٦
٨٣. الفتح /١٠
٨٤. ظ: مفتاح العلوم , ١٨٣
٨٥. ظ: تفسير القرآن الكريم السيد عبد الله شبر , ج ٥١٢/٢٦
٨٦. ظ : أسرار البلاغة و ٣٦٢/ و ظ مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية , ٦٢
٨٧. نهج البلاغة / تحقيق الشيخ محمد عبده ج٤ (١٥-١٦)
٨٨. النساء / ١٠
٨٩. ظ . الحيوان , الجاحظ ٢٥/٥ وما بعدها
٩٠. ظ . تلخيص البيان في مجازات القرآن , ١١٩
٩١. الجمعة /٥

٩٢. ظ . أساليب البيان في القرآن ٣٢٦
٩٣. ظ الصورة الفنية في المثل القرآني , ١٩٧
٩٤. ظ: تفسير القرآن الكريم , السيد عبد الله شبر ج ٢٨, ٥٥٣
٩٥. البقرة / ١٦٨
٩٦. علم البيان / عبد العزيز العتيق , ٢٢١ ٢٢٤
٩٧. دلائل الأعجاز , تحقيق محمد رشيد رضا , ٥٢
٩٨. تلخيص البيان في مجازات القرآن , ١١٨
٩٩. منهج التأويل في الفكر الصوفي , ٩
١٠٠. البقرة / ١٧١
١٠١. ظ : نفسير القرآن الكريم , السيد عبد الله شبر / ح٢٦/٢
١٠٢. الميزان في تفسير القرآن ج١ / ٤٢٠
١٠٣. أسرار البلاغة , ٢٩٧
١٠٤. التوبة / ١١١
١٠٥. تلخيص البيان في مجاز القرآن , ١٥١
١٠٦. أسرار البلاغة , ٣٠٠ وما بعدها
١٠٧. الطور , ٣٢
١٠٨. ظ : تفسير القرآن الكريم , السيد عبد الله شبر ج٢٧ , ٥٢٥
١٠٩. الصورة الادبية , مصطفى ناضف , ٨٨
١١٠. ظ . الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي / د. عبد القادر فيدوح , ٣٥٤
١١١. ظ : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي / د. جابر عصفور , ٩٢
١١٢. أسرار البلاغة, ٢٢٨
١١٣. هود / ٨٧
١١٤. تلخيص البيان في مجازات القرآن , ٣١٥
١١٥. ظ : البنيات الدالة في شعر أمل (دنقل) ٢٤٣
١١٦. الطور / ٤٩
١١٧. تلخيص البيان في مجازات القرآن , ٣١٦
١١٨. سفينة البحار . ٤١٣/٢
١١٩. الاسراء / ٢٩
١٢٠. الروم / ٣٥
١٢١. تفسير القرآن الكريم , السيد عبد الله شبر , ٤٠٨

المصادر

- القرآن الكريم
- الاتقان في علوم القرآن / جلال الدين السيوطي , تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم , مطبعة الحسيني (القاهرة ١٩٦٧)
- أثر البواعث في تكوين الدلالة البيانية / د. صباح عباس عنوز / مكتب الضياء النجف الاشرف ٢٠٠٧
- أسرار البلاغة / عبد القاهر الجرجاني ت ح هـ . ريتسير استنبول , ١٩٥٤
- اساليب البيان في القرآن الكريم / جعفر الحسيني / طباعة وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي , ١٤٢٤هـ
- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي / عبد القادر فيدوح / منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب / سوريا
- الاصول / دراسة ابسميولوجية للفكر اللغوي عند العرب , دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٨٨م
- الأيضاح في علوم البلاغة / الخطيب القزويني , مكتبة ومطبعة محمد علي صالح وأولاده القاهرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
- بيان اعجاز القرآن الخطابي – ثلاث رسائل في اعجاز القرآن , دار المعارف , القاهرة
- تاج اللغة , صحاح العربية / الجوهري ع / ١٦٢٧
- تفسير القرآن الكريم , السيد عبد الله شبر , مؤسسه دار الهجرة رقم ط , ١٣٢١ هـ ٢٠٠١ م
- الحيوان / الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون , القاهرة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨م
- دلائل الأعجاز , تحقيق محمد رشيد رضا القاهرة , ١٣٧٢هـ

- ديوان أمرئ القيس / تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. دار المعارف مصر , القاهرة د.ت
- ذكرى أبي العلا / طه حسين / ط القاهرة ١٩١٥
- الصورة الأدبية / مصطفى نا ضف دار مصر للطباعه القاهرة ١٩٥٨
- الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي عند العرب / د. جابر عصفور ١٩٨٢
- عبد القاهر الجرجاني : بلاغته ونقده , د. احمد مطلوب . بيروت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م
- عوارف المعارف / السهر دار الكتاب العربي , ١٩٦٦
- فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الأتصال / ابن رشد
- التفكر البلاغي عند العرب د. حمادي حمود أسسه وتطوره القرن السادس (مشروع قراءة) المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ١٩٨٩
- لسان العرب , ابن منظورة بيروت ١٩٥٥
- مناهل العرفان في علوم القرآن ط٢ مجد عبد العظيم الزرقاني , دار التراث العربي للطباعة والنشر بيروت (د.ت)
- مقالات الأسلاميين / ابو الحسن الأشعري / مطبعة السعادة مصر ١٣٢٣هـ
- المفردات في غريب القرآن / تحقيق محمد سيد كيلاني , مطبعة مصطفى بابي الحلبي. القاهرة ١٩٦١م
- مجمع البيان في تفسير القرآن – الطبرسي – مطبعة العرفان / صيدا , ١٣٣٣هـ
- المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر , ابن الاثير تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد , مطبعة مصطفى البابي الحلبي , القاهرة , ١٩٣٩
- مجاز القرآن الكريم / خصائصه الفنية وبلاغته العربيه , د. محمد حسين الصغير – بيروت
- الميزان في تفسير القرآن الكريم , محمد حسين الطباطبائي , مؤسسة الاعلمي للمطبوعات , بيروت د.ت.
- المقدمة أبن خلدون , مطبعة المثنى , بغداد
- نهج البلاغة / تحقيق محمد عبده / مكتبة النهضة بغداد
- نظرية البنائية في النقد الأدبي / د. صلاح فضل . دار الشؤون الثقافية . بغداد , ١٩٨٧م

Abstract

This research proceeds to appear the role of eloquence in moving the interpretative meaning in the Quranic text ,it's ability to open spaces of meditation and follows the traces of eloquence in changing the indications of meanings in the contexts of speech by producing the displacements (Inziyahatt).

The research observes the unity between the eloquent duty and it, interpretative function .Also how to depend on eloquence to from displacements which take several phenomena that the word is shifting out of its real meaning depending on eloquent styles as a method to show the meaning. In addition the language is described as a system of symbols which contains indications itself . the text will be as a consequence of language context structure and eloquent styles together .Here the eloquence appears as an operative to the units of meanings lead to the final issue within the style as dependable to produce the image referring to the form of indication and its relationship.

The research has found as mentioned above ,that the eloquence is supreme to interpretation ,describing it as destination of all the creative process imaged by the writer or what will be a achieved later in receiver at settlement ,leads to intention as an image as well.

The research has proved on that within the horizons at interpretation left by eloquence in Quranic text.

We can observe these relationships by applying on Quranic texts. The interpretation has been as a consequence of moving the inspired units at meaning which issued by functional performance at form and content fundamentals together. The eloquence will be as an instrument itself which its function and duty be a wared in explaining the nets at meaning and to reach To the intention.